جامعة محمد خيضر – بسكرة –

كلية الآداب واللغات

قسم الآداب واللغة العربية

محاضرات في مقياس الأدب الصوفي

السنة الثالثة ليسانس / أدب عربي

أستاذ المادة : د/ ساميـــــة بوعـجـاجـــــة

السنة الدراسية : 2020 / 2021

المحاضرة الأولى : شعر الزهد والتصوف

أولا : مفهوم الزهد ، وتطور شعر الزّهد :

إنّ أول ما يثير انتباه المتلقّي ، ويدعوه إلى السؤال ، هو : ما المقصود بالزهد و ما معنى التصوف ؟ وهل هما شيء واحد ؟ أم هناك اختلاف بينهما ؟

1/ تعريف الزّهد لغةً : ورد في مختار الصحاح : " الزّهد ضدّ الرغبة ، تقول: زهد فيه وزهد عنه.. و التّزهد : التّعبد ، والزّهد القليل المال . وفي الحديث : " أفضل النّاس مؤمن مزهد "[1]

وجاء في كتاب التعريفات : " الزهد في اللغة ترك الميل إلى الشيء ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة : هو بغض الدنيا والإعراض عنها . وقيل : هو ترك راحة الدنيا طلبا لراحة الآخرة ، وقيل : هو أن يخلو قلبك مما خلت منه يدك " [2]

وفي القرآن الكريم ، قال تعالى : " **وكانُوا فيه من الزَّاهدين** " [3] أي : زهدوا في النبي يوسف عليه السلام ، ولذلك باعوه بثمن بخس ، جاء في التفسير : " وكانوا في **يوسف** من الزّاهدين الذّين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبدا آبقا فينتزعه سيده من أيديهم ، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان " [4]

---

[1])- الإمام الرازي ، مختار الصحاح ، تحق : عبد الفتّاح البركاوي ، دار المنار ، ص 140

[2]) - الشريف الجرجاني ، كتاب التعريفات ، تحق : محمد عبد الرحمان المرعشلي ، ط2 ، دار النفائس ، بيروت ، 1428 هـ ، 2007 م ، ص 184 .

[3]) – سورة يوسف ، الآية 20

[4])- الشيخ محمد علي الصابوني ، صفوة التفاسير ، ج2 ، ط1 ، دار الصابوني للطباعة والنشر ، القاهرة ، 1417 هـ ، 1997 م ، ص39

ـــ **الزّهد اصطلاحا** : هو تيار أو حركة دينية ، اختار سلوكها فئة من الناس عرفوا بالزهد ، فقد آثروا الانصراف عن الدنيا و رغائبها . و الإقبال نحو الدار الآخرة ، أي إعداد الزّاد لدار المعاد .

2/ الزهد في العصر الأموي :

في العصر الأموي ظهرت طائفة كبيرة من الزهاد والعباد ، الذين عرفوا بالصلاح و التقوى ، ومجاهدة النفس ، و سلوك سبيل التقشّف والزهد في حطام الدنيا و نعيمها الفاني.

و كانوا في أفعالهم و مجاهداتهم يتأسون برسول الله ﷺ ؛ فقد حقّر سيدنا المصطفى ﷺ من شأن الدنيا ورغّب في الدار الأخرى ، و مما قاله في هذا الشأن : " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل " [1]

كما عاش حياة شظفة ، ملؤها حب الله والخوف منه ، واجتهاد في أداء العبادات ، لكن من غير رهبانية أو غلو . و كذلك الأمر مع الصحابة فقد اقتدوا به في سلوكهم و عباداتهم " فاندفع كثير من الصحابة في حياة ناسكة ، كلها تقوى و عبادة و رفض لزخرف الدنيا و تقشّف ، وابتهال إلى الله ، وتوكل عليه ، وانتظار لما عنده . ومن هؤلاء الصحابة معاذ بن جبل ، وأبو بكر ، وعلي وعمر.."[2]

أما عن الزهاد في العصر الأموي ، فكانوا من جلة التابعين ، فقد عرفوا بالصلاح والتقوى ، والتقشف في الحياة ، ومجاهدة النفس بكثرة العبادات ، وقد ذكر الجاحظ في بيانه عددا من هؤلاء الوعاظ ، الذين انتشروا في بيئات الحجاز والعراق والشام ، ومنهم :أبو حازم

---

[1]) – الإمام زين الدين الزبيدي ، مختصر صحيح البخاري ، تحق : إبراهيم بركة ، أحمد راتب عرموش ، الشركة الجزائرية ، ص 479

[2]) – شوقي ضيف ، التطور التجديد في الشعر الأموي ، ط8 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص56

الأعرج والشعبي والحسن البصري ، هذا الأخير كان يقول : " أدركت من صدور هذه الأمة قوما كانوا إذا جنهم الليل فقيام على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجري دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم في فكاك رقابهم " [1]

3/ الزهد في العصر العباسي :

في هذه الفترة انتشرت موجة من المجون والزندقة وخاصة من طرف الموالي ، ممن جاهروا بالمعصية وعرفوا بالخلاعة ، واشتهر منهم : أبو نواس ، بشار بن برد ، والبة بن الحباب..

وفي المقابل انتشرت موجة من الزهد ، وكثر الزهاد والوعاظ ، وانتشروا في مساجد الكوفة والبصرة وبغداد " وقد صدقت كثرتهم ربها مخافة وعيده ، مؤمنة بأن القيامة موعدها وموقفها مع ذي الجلال وأن العمر وإن طال قصير وأن الدنيا ينبغي أن تكون دار زاد لدار المعاد."[2]

ومن مشاهير الوعاظ النساك : محمود الوراق ، محمد بن كناسة ، عبد الله بن المبارك وغيرهم كثير.

فهذا عبد الله بن المبارك قد أرسل ، وهو مرابط في الجهاد ، إلى الفضيل بن عياض العابد المعروف ، وكان مجاورا بمكة ، فقال :

---

[1]) –نفس المرجع ، ص 57

[2])– شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ط6 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 399

يا عابدَ الحرمينِ لو أبصرتَنا * لعلمتَ أنّكَ في العبادةِ تلعب

من كان يخضبَ جِيدهُ بدموعِه * فنحورنا بدمائنا تتخضّب

أو كان يتعبُ خيلَهُ في باطلٍ * فخيولنا يوم الصّبيحة تتعبُ

ريحُ العبير لكم ونحنُ عبيرُنا * وهجُ السنابكِ والغبارُ الأطيبُ[1]

من الشعراء الذين عرفوا بالزهد **أبو العتاهية** ، فقد كان في مستهل حياته ماجنا ، ثم بعد ذلك سار سيرة حسنة ، وراح يدعو إلى فضائل الأخلاق ، ويناجي أصحاب القبور ،

ويدعو إلى العظة والتدبر ، كل ذلك في لغة سهلة مشرقة ، يفهمها العامة والخاصة " ولقد أكثر من ذكر الموت والوقوف على القبور والانتفاع بالمعاني القرآنية ، مع أسلوب شعري سريع التقبل غير مغرب في اللفظ أو مغلق في المعنى ، الأمر الذي جعل قصائده تذيع بين العامة قبل الخاصة وتجد حسن استجابة " [2]

ويذكر في قصيدته اللامية تفاهة الدنيا ، ومصير كل حي وهو الفناء ، فنعى نفسه وصور نفسه وقد سجي نعشه في جدثه ، ومن خلفه نسوة يبكين عليه ، ويدعو إلى القناعة وترك جمع المال ، يقول :

نَعى نفسي إليَّ من اللّيالي * تصرُّفهنَّ حالاً بعدَ حالِ

فمالي لستَ مشغولاً بنفسي * وما لي لا أخافَ الموتَ ما لي

لقدْ أيقنتُ أنّي غيرُ باقٍ * ولكنّي أراني لا أُبالي

---

[1]) – نفس المرجع ، ص 403

[2]) – مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، ط5 ، دار العلم للملايين ، 1980 ، ص222

أما لي عِبرةٌ في ذكرِ قوم * تفانَوا ربما خطروا بِبالي

كأنَ ممرِضي قد قام يمشي * بنعشي بين أربعةٍ عجالِ

وخلْفي نِسوةٌ يبكين شَجواً * كأنَّ قلُوبهُنَّ على مقالِ

سأقنعُ ما بقيتُ بقوتِ يوم * ولا أبغي مُكاثرةً بمالِ[1]

ثانيا : مفهوم التصوف ، وتطور الشعر الصوفي :

1/ التصوف لغة : ورد في بعض المعاجم الحديثة : لفظة تصوف مشتقة من الفعل(صوف) وجعله صوفيا ؛ بمعنى تخلّق بأخلاق الصوفية ، والصوفية فئة من المتعبدين ، واحدهم الصوفي .[2]

وفي الاصطلاح ، عرفه الشيخ أبو الحسن الشاذلي تعريفا موجزا فقال : " التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها لأحكام الربوبية "[3]

وفي بعض المعاجم ، التصوف يعني : " طريقة سلوكية قوامها التقشف والتحلي بالفضائل ، لتزكو النفس وتسمو بالروح.

وعلم التصوف : مجموعة من المبادئ التّي يعتقدها المتصوفة والآداب التي يتأدبون بها في مجتمعاتهم وخلواتهم "[4]

---

[1]) – نفس المرجع ، ص 217 .

[2]) – ينظر : لويس معلوف ، المنجد في اللغة ، ط 19 ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ص 441

[3])– نور الهدى الكتاني ، الأدب الصوفي في المغرب والأندلس في عهد الموحدين ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1429 هـ، 2008م ، ص8

[4])– أحمد حسن الزّيات وآخرون ، المعجم الوسيط ، ج1 ، ص529

أما عن سبب التسمية ؛ فهناك من يرجعها إلى لبس الصوف من طرف المتصوفة ، وهناك من ينسبها لأهل الصفّة وهم فقراء المدينة المجاورين لمسجد الرسول ﷺ ، ويرجع بها بعضهم إلى أصل يوناني " سوفيا " بمعنى الحكمة .

2/ شعر التصوف في العصر العباسي :

كما مر بنا كثر في هذه الفترة الوعاظ والقصاص ، كما كثرت التيارات الفكرية والفلسفية ، كما نجد أخلاطا من الشعوب والثقافات كاليونانية والفارسية.. كل هذا شكل المادة الأولية لتشكل النزعة الصوفية ، وهنا لمسنا تأثرا واضحا بالمقولات الفلسفية والأفكار الدخيلة على الإسلام .

ولكن يبقى أساس التصوف إسلاميا يستقي أصوله وأعمدته الأولى من شريعة الإسلام القائمة على توحيد الله تعالى والإقرار بالربوبية له ، وطاعته في السر والإعلان ، والإقرار بالحقيقة المحمدية .. وغيرها من الأصول.

في هذه الفترة ظهرت أولى ملامح التصوف متمثلة في ظهور " الحب الإلهي" وهو حب ينسي المتصوف كل موجود ويتجرد من كل حس ومادة ، يفنى عشقا في الذات الإلهية ، ولعل خير نموذج أبيات رابعة العدوية التي تقول فيها :

أحبكَ حبينِ : حبُّ الهوى * وحبًّا لأنّكَ أهل لذاكَا

فأمّا الذي هوَ حُبُّ الهوى * فشُغلي بِذكركَ عمّن سِواكا

وأما الذي أنت أهل لهَ * فَكشفُك لي الحجَب حتى أراكا

فلا الحمدَ في ذا ولا ذاك لي * ولكن لكَ الحمدَ في ذا وذاكَ [1]

[1]) – شوقي ضيف ،تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الأول ، ص 402